آليات العولمة لتفكيك بنية الهوية العربية

د. سهى حمزاوي

أستاذة محاضرة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة خنشلة

تمهيد:

تسعى ثقافة العولمة في كثير من الأحيان إلى اختراق الثقافة العربية، لأن هذه الأخيرة بحكم رسوخها التاريخي وتغلغلها في شخصيات البشر تشكل عقبة أمام تدفق موجات العولمة. لذلك اتجهت العولمة إلى دك الثقافة القومية تارة من خلال إحياء الثقافات المحلية حتى تقضي على فاعلية الثقافة العربية، وتارة من خلال استبدال مضامين الصورة الصادرة عن الثقافة الغربية المعاصرة بمضامين الكلمة المتدفقة من التراث، وتارة من خلال نشر الثقافات الفرعية المنحرفة في بناء الثقافة العربية كنشر ثقافة الاستهلاك ونشر ثقافة الفساد، وتارة من خلال اختراق الهوية وهتك نسيجها لإضعاف الرابطة التي تربط البشر.

ومن الطبيعي أن تؤدي هذه الانهيارات في بنية الثقافة والقيم إلى عديد من الظواهر والسلوكيات التي تظهر كرد فعل لذلك.

ولتحقيق هدفها تبنت ثقافة العولمة آليات وأساليب عديدة أهمها: بعث الثقافة المحلية، تقويض بناء الثقافات العربية وغيرها.

تأسيسا على ما سبق يأتي هذا المقال ليتناول جملة القضايا السابقة بالتحليل والدراسة بمناقشة العناصر الآتية:

1-مفاهيم أساسية: العولمة- الهوية- الهوية الثقافية.

2-دور المتغيرات الخارجية في التأثير على طبيعة الهوية العربية.

3-مجالات تقويض العولمة لبناء الهوية العربية.

4-تآكل الهوية العربية في ظل العولمة.

5-آليات العولمة لتفكيك بنية الهوية العربية.

6-تبديد العولمة للهوية الجزائرية.

7-آليات الحفاظ على الهوية العربية في عصر العولمة.

8-:مفاهيم أساسية:

العولمة حظيت العولمة بتعاريف مختلفة باختلاف وجهة نظر أصحابها، وأهم هذه التعاريف نجد:

1- " العولمة تمثل حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها في ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ " [(1)]

2- يعرفها برهان غليون بأنها: " ديناميكية جديدة تبرز داخل دائرة العلاقات الدولية، من خلال تحقيق درجة عالية من الكثافة، والسرعة في عملية انتشار المعلومات التقنية والعلمية."[(2)]، كما كانت رؤيته للعولمة في موضوع آخر على أنها: " ثمرة التطورات العلمية، والتقنية الموضوعية النابعة من منطق التنافس بين الدول، والشركات لتحقيق أهداف تتعلق بخدمة المصالح الاجتماعية".

3- يضع جلال أمين تعريف للعولمة على أنها: "ظاهرة متعددة الجوانب تشمل تسارع معدل التجارة الدولية وتدفق العمالة ورأس المال والتكنولوجيا، فضلا عن تسارع معدل انتقال الأفكار وأنماط الحياة. ويختلف أثر هذه الجوانب في التنمية البشرية"[(3)]

2. الهوية:

تعد الهوية من المفاهيم المتحركة التي تتصل بالفرد أو الجماعة أو الطبقة أو المجتمع أو الحضارة، وهي ليست نسقا مغلقا بل هي نسق مفتوح، وقد حظيت بعدة تعاريف أهمها:

1- "مركب من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي".[(4)]

1- " هي الصورة أو التصورات المعنوية للشيء المتجسد واقعيا، سواء كان المتجسد هو الفرد أو الجماعة أو المجتمع". [(5)]

3. الهوية الثقافية: يقصد بها:

" مجموعة السمات والخصائص التي تنفرد بها الشخصية العربية وتجعلها متميزة عن غيرها من الهويات الثقافية الأخري ، وتتمثل تلك الخصائص في اللغة والدين والتاريخ والتراث والعادات والتقاليد والأعراف وغيرها من المكونات الثقافية ذات السمة العربية والإسلامية"[6]

2– دور المتغيرات الخارجية في التأثير على طبيعة الهوية العربية:

يذهب المفكرون إلى أن هناك جملة من المتغيرات التي يمكن أن تساعدنا في فهم عالمنا المتغير المتداخل الهويات، إضافة الى فهم التفاعلات العالمية المحيطة بالهوية العربية فتؤثر فيها وتحدد طبيعتها. وهي التفاعلات التي بدأت مع التحولات التي طرأت على نظامنا العالمي المعاصر. (سقوط الاتحاد السوفياتي)

وقد تأثرت الهويات العربية في تشكل طبيعتها بجملة من المتغيرات لعل أبرزها اثنين:

1. ثورة المعلومات وتشكيل الهوية الهجين:

يشهد عامنا المعاصر ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات التي أدت دورا أساسيا في تحطيم الحواجز المعنوية على الصعيد العالمي، ولأن الثورة الاتصالية والمعلوماتية كانت قوية فقد استطاعت لملمة عالمنا المعاصر الفسيح، واختزلت مساحاته حتى أصبحت قرية صغيرة تتقابل على ساحتها هويات وحضارات مختلفة.

من هذا التقابل ظهرت أربعة ظواهر أساسية تتمثل الظاهرة الأولى في امتلاك بعض الهويات لوسائل العصر، إضافة الى التفوق في وسائل الاتصال وتكنولوجيا المعلومات، الأمر الذي يسر لها السعي لاختراق الهويات الأخرى.

وتشير الظاهرة الثانية الى جمود بعض الهويات غير القادرة على تطوير إمكاناتها وقدراتها في عالم متسارع التغير. وفي هذا السياق الضعيف تتولد القابلية للاختراق. كما نجد أن كل تدفق من شأنه أن يعمل في اتجاه تبديد هويتها الفرعية حتى تنكشف.

وتشير الظاهرة الثالثة الى بروز الهويات المحلية على حساب الهويات القطرية والقومية بفعل عديد من المتغيرات العالمية، بحيث أصبح فضاءنا العالمي متخم بهويات فرعية عديدة. في حين تتجسد الظاهرة الرابعة في ظهور الهويات الهجين، هويات قد تتشكل من عناصر كانت متنافرة، غير أن الظروف تدفع المتنافرين ليتآلفوا ويشكلوا هويات جديدة. ومن بين هذه الهويات الهجين الأقليات العربية التي تعيش الآن في المجتمعات الغربية حيث تتكامل العناصر المتنافرة في هوية جديدة متماسكة.

2. ميل القوى العالمية لاختراق الهويات والإضرار بها:

لقد أصيبت الهوية العربية بالضعف الذي أسس في إطارها فراغا من الطبيعي أن تسع هويات أخرى لملئه. وهو ما سعت الهويات الغربية اليه.

إن التراث الغربي يشكك باستمرار في الهوية العربية، والنظر الى فكرة العروبة والدعوة للتضامن العربي باعتبار أن ذلك نوعا من الوهم لأسباب تتعلق بخصائص العالم العربي. وإذا كانت الامبريالية الغربية قد تمكنت من تعطيل تطور الهوية العربية وسعت الى تقليص نموها من خلال اللجوء الى التفرقة الطائفية والعرقية، خاصة في المجتمعات التعددية الشديدة التنوع، وإنشاء قواعد عسكرية، واستعمال الارساليات التبشيرية الدينية، وممارسة الاستعمار الثقافي، بالإضافة الى الاستعمار السياسي والاقتصادي.

3. مجالات تقويض العولمة لبناء الهوية العربية:

تعرضت الهوية العربية لهجوم كثيف من قبل ثقافة العولمة استخدمت فيها وسائل وآليات عديدة أبرزها:

أ– اللغة:

تعد اللغة العامل الأول الذي استهدفته ثقافة العولمة، باعتبار أن اللغة هي الآلية الرمزية التي يتحقق بواسطتها التفاعل الاجتماعي داخل بنية الثقافة، لهذا تسعى العولمة إلى استبدال اللغة الأصلية بلغة جديدة لأن إزاحة اللغة يعني إعادة تشكيل التفاعل اللغوي وبالتالي إزاحة الثقافة.

كما تعد اللغة العربية لغة التراث المشترك، ولغة العلم والثقافة للعديد من الدول العربية الإسلامية، وبالتالي لغة التحديث والحداثة، وقد أصبحت الرابطة التي توحد الأمة. وقد أشار اللغويون المعاصرون إلى أنها ظلت محتفظة بحيويتها ومنظومتها النحوية والصرفية طوال عدة قرون وهذا ما لم يحدث للغة أخرى كما يشهد بذلك علم اللسانيات.

وقد استطاعت اللغة العربية أن تواكب التطور الحتمي في الدلالات، ويؤيد ذلك ما أقره الكاتب الإسباني كاميلو من ثورة الاتصالات التي اختزلت الزمان، وبالتالي ستؤدي إلى انسحاب أغلب اللغات قبل نهاية القرن الواحد والعشرين ماعدا أربع لغات هي الانجليزية والفرنسية والإسبانية والعربية الأمر الذي أثار حفيظة الغرب" (7)

وقد تم الهجوم على اللغة العربية بأساليب عديدة أولها أن اللغة الانجليزية هي لغة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، فمثلا يلاحظ أن اللغة المستخدمة في شبكة المعلومات هي اللغة الانجليزية، إضافة إلى أن أغلب المعلومات على الشبكة واردة من الولايات المتحدة الأمريكية، مما يجعل لها وضع الأفضلية في مجال مجتمع المعلومات العالمي. ولهذا الوضع سلبياته المتعددة أبرزها حرمان مستخدمي الشبكة من التعرف على المعلومات غير الأمريكية الأصل، إضافة إلى أن العولمة أتاحت الفرصة للاستثمار الأجنبي، وبالتالي نجد أن أغلبية الشركات الأجنبية تستخدم اللغة الأجنبية، وفي الغالب الانجليزية أو الفرنسية كلغة لأداء الأعمال والمهام، الأمر الذي يؤدي بالمعنيين إلى ضرورة إتقان التعامل باللغة الأجنبية ولو على حساب لغته الوطنية، كما أن وجود الشركات الأجنبية بأسمائها الأجنبية يطرح مفردات غريبة على اللغة القومية في لغة التعامل اليومي.

وينتقل هذا الانهيار الذي حدث للغة إلى الشارع والتفاعلات اليومية، حيث يتم استبعادها تدريجيا من مجريات التفاعل الاقتصادي وفرض انزواءها وتحويلها إلى لغة من الدرجة الثانية. يحدث ذلك حينما تستبدل ثقافة العولمة اللغة العربية بلغة هجين وسط بين لغة الثقافة القومية وثقافة العولمة، ولو بشكل انتقائي مثل صيانة كو، أو فارماكو... أو تكتب اللغة بمنطوق انجليزي، ولكن بحروف عربية مثل: بتروتريد باللغة الأجنبية.

ومن الطبيعي أن يؤدي هجر اللغة إلى هجر الثقافة، وبالتالي تكسب ثقافة العولمة أرض ثقافية جديدة، ويتقلص في المقابل نصيب الثقافة العربية لتنسحب من أرضها ووطنها، أو أن يتجه الشباب إلى ابتكار لغة جديدة لها معانيها ومفرداتها وتعابيرها دون أن يعرفها الكبار الحاملين للغة وثقافة التراث، تأكيدا لحالة من الانفصال عن اللغة والهوية الوطنية ورفضا للتفاعل من خلالها.

ب– الدين:

يعد الدين المجال الثاني لضغط ثقافة العولمة على الثقافات القومية وتفكيكها، ومنه تفكيك بناء الهوية العربية، حيث اتسعت للاعتداء على الدين وتشويه هويته، باعتبار أن الدين يشكل جوهر أو محور الحضارة، وهو يخاطب الجوانب الروحية في الإنسان على عكس ثقافة العولمة التي تخاطب الغرائز وهي تشكل أساسا لمركب يفصل الإنسان عن واقعه الاجتماعي وعالمه الروحي.

ومن الأمور التي تهدد الدين والعقيدة هو المجتمع التكنولوجي الحديث، فمثلا تحويل احتفال المسلمين بشهر رمضان من مناسبة دينية إلى مناسبة استهلاكية.

كما يكمن إضعاف الدين في التعامل الانتقائي معه، فبدلا من استيعاب الأجيال للبناء العقيدي للدين متكاملا، فنكتفي ببعض العناصر ونستبعد أخرى.

وهناك إضعاف آخر يقع للدين حينما نعزله عن تنظيم التفاعلات اليومية، وإذا كان الدين يتشكل من مجموعة من العبادات، فإن قوى العولمة تحصر الدين في حدود العبادات، بينما فاعلية مضامين العولمة هي الحاضرة على ساحة المعاملات. ويتجسد ذلك في أن تفرض ثقافة العولمة الاختلاط بين الشباب في الأماكن العامة، وتراكم السلوكيات البعيدة عن مقتضيات الدين والهوية الوطنية.(8)

وإذا كان منطق الدين ينطلق من العبادات ليدعم أو يقوي المعاملات، فإن العولمة تبدأ من العكس أي من السيطرة على المعاملات اليومية المحدودة التي تتسع لتشغل مكانة المعاملات في الدين، ومن ثم تفرض تآكل العبادات الدينية.

4– تآكل الهوية العربية في ظل العولمة:

إن الهوية هي نتاج تفاعل قيم متنوعة امتزجت فشكلت تكوينا كليا جديدا. وتظل الهوية متماسكة وسليمة طالما أن المتغيرات المكونة لها (التاريخ، السكان، الدين، اللغة، الثقافة) سليمة ومتماسكة. فإذا تأثرت أي من المتغيرات المشاركة في بناء الهوية، فإنه من الطبيعي أن يؤثر ذلك سلبا على بناء الهوية. فتنتج لنا هوية ناقصة أو مشوهة.

على هذا النحو فإننا نجد أن هناك ثلاثة مصادر لتشوه الهوية **أولها**: أن تؤدي المتغيرات المشاركة في بناء الهوية دورها بصورة سلبية، بمعنى أن لا تقدم قيمة مضافة تلعب دورا في بناء الهوية، كأن تتآكل فاعلية اللغة أو الدين أو الثقافة، أولا يتعرف البشر على خبرات تاريخهم، أو أن يضعف دور الدين والأخلاق في بناء الهوية، بينما يكون **المصدر الثاني** على عكس المصدر الأول حيث يؤدي أي من المتغيرات المشاركة في بناء الهوية دوره أكثر من المطلوب منه، كأن يكون الدين مثلا متطرفا فيؤثر بطبيعة الحال على طبيعة الهوية، أو تعيش كثيرا في الذكريات التاريخية والماضية متغافلين على الحاضر، فيكون ذلك تعبيرا عن هوية مشوهة. بينما يتمثل **المصدر الثالث** لتآكل الهوية العربية في الاختراق الخارجي الذي يضعف فاعلية المتغيرات المشاركة في بناء الهوية كإضعاف الدين أو اللغة أو الثقافة، مما يساعد على إنتاج هوية ناقصة أو مشوهة.

إن العولمة نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع للتفتيت والتشتيت ليربط الناس بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة، أو يغرقهم في أتون الحرب الأهلية، ومع التطبيع مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري يأتي فقدان الشعور بالانتماء لوطن أو أمة أو دولة، وبالتالي إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى.

إن العولمة عالم بدون دولة، بدون أمة، بدون وطن. إنه عالم المؤسسات والشبكات العالمية، عالم "الفاعلين"، وهم المسيرون، و"المفعول فيهم" وهم المستهلكون للسلع والصور والمعلومات والحركات والسكنات التي تفرض عليهم. أما "وطنهم" فهو الفضاء "المعلوماتي" الذي تصنعه شبكات الاتصال، الفضاء الذي يحتوي –يسيطر ويوجه– الاقتصاد والسياسة والثقافة.

ولا بد من التأكيد هنا على أن مفهوم **الهوية الثقافية القومية** الذي نستعمله هنا، بمعنى الهوية المشتركة لجميع أبناء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، لا يعني قط إلغاء ولا إقصاء الهويات الوطنية القطرية ولا الهويات الجمعوية، الإثنية والطائفية. إنه لا يعني فرض نمط ثقافي معين على الأنماط الثقافية الأخرى، المتعددة والمتعايشة، عبر تاريخنا المديد، داخل الوطن العربي الكبير. بل يجب أن نؤكد على أن التعدد الثقافي في الوطن العربي واقعة أساسية لا يجوز القفز عليها، بل لا بد من توظيفها بوعي في إغناء وإخصاب الثقافة العربية القومية وتوسيع مجالها الحيوي. ولكن تبقى مع ذلك كله الوظيفة التاريخية لهذه الثقافة، وظيفة التوحيد المعنوي، الروحي والعقلي، وظيفة الارتفاع بـ: "الوطن العربي" من مجرد رقعة جغرافية إلى وعاء للأمة العربية لا تكون إلا به ولا يكون إلا بها.

هذا من جهة ومن جهة أخرى، فاللغة المشتركة بين جميع أبناء الأمة العربية، لغة التراث المشترك ولغة العلم والثقافة العالمة جملة، وبالتالي لغة التحديث والحداثة هي اللغة العربية. ولذلك كانت اللغة العربية هي في آن واحد الرابطة المتينة التي توحد بين مستويات الهوية في الوطن العربي أعني المستوى الفردي والمستوى الجمعوي والمستوى الوطني والقومي، وأيضا الأداة الوحيدة التي بها يمكن العرب الدخول في العالمية وتحقيق الحداثة.

- **العولمة وتكريس الثنائية والانشطار في الهوية الثقافية العربية**

كلنا نعرف أن الثقافة العربية تعاني منذ ما يقرب من قرنين وضعا متوترا نتيجة احتكاكها مع الثقافة الغربية بتقنياتها وعلومها وقيمها الحضارية التي هي نتيجة تطور خاص قوامه التحديث والحداثة، تطور لم تعشه الثقافة العربية، بل بقيت بمعزل عنه تجتر وضعا قديما توقف عن النمو منذ قرون.

في هذا الإطار إذن يجب أن نضع خصوصية العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية عندما يتعلق الأمر بالوطن العربي. فالاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة لا يقف عند حدود تكريس الاستتباع الحضاري بوجه عام، بل إنه سلاح خطير يكرس الثنائية والانشطار في الهوية الوطنية القومية، ليس الآن فقط بل وعلى مدى الأجيال الصاعدة والقادمة. ذلك أن الوسائل السمعية البصرية، المرئية واللامرئية التي تحمل هذا الاختراق وتكرسه إنما تملكها وتستفيد منها فئة معينة هي النخبة العصرية وحواشيها، فهي التي تستطيع امتلاكها والتعامل مع لغاتها الأجنبية، بحكم التعليم "العصري" الذي تتلقاه. أما "عموم الشعب" وعلى رأسه النخبة التقليدية فهو في شبه عزلة، يجتر بصورة أو بأخرى ثقافة

"الجمود على التقليد". والنتيجة استمرار إعادة إنتاج متواصلة ومتعاظمة للثنائية نفسها، ثنائية التقليدي والعصري، ثنائية الأصالة والمعاصرة، في الثقافة والفكر والسلوك.

5- آليات العولمة لتفكيك بنية الهوية العربية:

1. بعث الثقافات المحلية:

إن ثقافة العولمة تعمل على إضعاف الثقافة القومية، ومنه إضعاف الهوية العربية خاصة وأن الثقافة القومية تقف عقبة أمام انتشار ثقافة العولمة، لهذا لابد من فرض آليات لقهرها وفرض انهيارها.

وفي هذا الإطار تنجز ثقافة العولمة مهمتها من خلال إعادة إنتاج الثقافات المحلية، وإعادة إخراجها في أنساق جديدة جذابة بمعنى أن قوى العولمة وأدواتها تحول ما هو محلي خاص ببيئة اجتماعية ثقافية معينة إلى شيء مختلف عن تلك المحلية أو الخصوصية القديمة الأصلية.

2. استبدال ثقافة الكلمة بثقافة الصورة:

تعد ثقافة الصورة مكونا أساسيا في بناء ثقافة العولمة لأن الصورة تصبح رمز التخاطب أو التفاعل في هذه الثقافة التي تسعى إلى الانتشار بهدف تحقيق التجانس.

وحتى تنجز العولمة هذه المهمة بسرعة فإنها تحتاج إلى لغة الصورة وليست لغة الكلمات، خاصة وأن ثقافة الصورة عابرة للحدود عكس الكلمات. فالبشر يدمنون الصور التي تتدفق من خلال الإعلام والإعلان لأنها لا تتطلب منهم سوى جهد المتابعة من أجل الإدراك والفهم.

إن ثقافة الصورة ترفض التأمل والحس النقدي فهي ثقافة نتلقاها دون أي رد فعل لأنها سريعة التتابع، ومن ثم الملاحظة تحتاج إلى يقظة الحواس دون الاهتمام بالعقل (الصورة تقتل العقل الإنساني).[9]

وإذا كانت الثقافة المحلية أو القومية تتغلغل بداخل الإنسان من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها مؤسسات المجتمع المختلفة لكونها تضبطه من داخلها، فإن ثقافة العولمة تسيطر عليه من الخارج بالتكنولوجيا المتدفقة تارة، وبقيم السوق وثقافته تارة أخرى، وبظواهر غير سوية أخرى كالجنس والمخدرات.

3. ترويج العولمة لظواهر سلبية:

تروج العولمة للعديد من الظواهر الثقافية والاجتماعية السلبية التي تعاني منها البيئة الثقافية، ومن هذه الظواهر انتشار ثقافة الاستهلاك في مجتمعات فقيرة. ولكن على الرغم من هذا تميل بعض الشرائح إلى تمجيد ما هو أجنبي، والميل إلى استهلاكه كأحد رموز المكانة الاجتماعية. بذلك تتلاشى المشاعر المرتبطة بالهوية الوطنية، ويندفع البشر رغما عنهم إلى الارتباط بما هو أجنبي وخارجي على حساب ما هو محلي. (ثقافة الفساد كإحدى الظواهر التي جاءت بها العولمة)

4. إضعاف العولمة لعواطف الانتماء:

يعد اختراق الهوية وإضعاف الانتماء هو الهدف الرابع الذي استهدفته قوى العولمة. ومن الطبيعي أن تعتمد العولمة آليات عديدة أهمها: الإعلام وتكنولوجيا المعلومات. فقد فرض انتشار شبكات البث الفضائية تفوقا على وسائل الإعلام الرسمية المحلية، إذ يجد المواطن أمامه موجات من التدفق الإعلامي العالمي الذي يسهم في تنمية معارف ومدركاته، وتطوير وعيه من خلال قراءة التغيرات والتطورات التي تقع في مختلف أرجاء العالم، الأمر الذي أضعف ارتباط الإنسان بأحداث مجتمعه لصالح اهتمامه بمتابعة الأحداث العالمية.

ومن آليات إسقاط الانتماء كذلك إضعاف مؤسسات التنشئة الاجتماعية، فإذا كانت فاعلية الأسرة في عملية التنشئة الاجتماعية تسبق فاعلية الإعلام، فإن الأسرة العربية تعيش حالة انهارت فيها منظومتها القيمية، وتمزق نسيج علاقاتها الاجتماعية بسبب التحولات الاجتماعية، إضافة إلى أن بناءها يخضع الآن لحالة من الفوضى بسبب تعديل المكانات والأدوار، وبسبب فاعلية الإعلام.

ونتيجة لهذه الظروف والتحولات سقطت الأسرة باعتبارها مرجعية قومية وأخلاقية للأبناء، كما أضعفت سلطة الآباء إضافة إلى عدم وجود سلطة قيمية تنظم التفاعل بين عناصرها الأمر الذي عمل على تفكيك الأسرة، وعزل الفرد وحرمانه من أية تفاعلات.

6- تبديد العولمة للهوية الجزائرية:

أ- الاستعمار:

يعد الاستعمار الفرنسي أول محاولات اختراق الثقافة العربية والإسلامية للمغرب العربي، ويمكن اعتبار الجزائر مثالا واضحا على ذلك. إذ لم يكتف الاستعمار الفرنسي بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه، ولكنه سعى إلى إفساد العقل الجزائري والقضاء على الثقافة الجزائرية من خلال إتباع سياسة الفرنسة، وقد تأكد ذلك من خلال أمر صدر إلى حاكم الجزائر غداة الاستقلال جاء فيه:

"إن الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هناك قومية. والعمل الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر الثقافة الفرنسية بين الأهالي إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة "

ب– الاختراق الثقافي:

يستهدف الاختراق الثقافي إلى جعل اللغة الفرنسية هي الوسيط الرئيس للتفاعل الاجتماعي حيث أصبحت الفرنسية هي اللغة الوحيدة المستعملة في كتابة أسماء المحلات والشوارع والمرافق العامة. واستبدلت الشوارع بأسماء لقادة الغزو العسكري والفكري للجزائر مثل: بيجو" "كلوزيل"، ولأعلام الفكر والأدب الفرنسي مثل: "ديكارت"، فيكتور هيجو" " لامارتين".

إذن كانت فرنسة المجتمع الجزائري هي الغاية القصوى التي استهدفت تحقيقها الإدارة الفرنسية.

مثال على ذلك **القرار 849** الذي أصدرته السلطات الفرنسية للإدارة الجزائرية والذي يقول: "**إن لغتنا هي اللغة الحاكمة، ومن ثم فإن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب...إن أهم الأمور التي ينبغي أن نعتني بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا ودمجهم فينا وجعلهم فرنسيين**"[10]

ج– التنصير:

عمدت جهود التنصير كآلية رابعة إلى دفع السكان المسلمين إلى اعتناق المسيحية كآلية للاختراق الثقافي للجزائر، وذلك عن طرق إخراج الشعب الجزائري عن دينه وإرغامه على اعتناق المسيحية.

وفي هذا الإطار يقول أحد الكتاب: "**لقد حصر كتاب فرنسا أنفسهم بين نزعتين أساسيين هما التنصير والفرنسة، وبتعبير أوضح العمل على إقامة الديانة المسيحية محل الديانة الإسلامية، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية، لأن التنصير يساعد على الفرنسة، والفرنسة تساعد على التنصير...**"[11]

ولتحقيق عملية التنصير، عمدت فرنسا إلى تكثيف نشاط الإرساليات المسيحية والتبشير للمسيحية من خلال القيام ببعض الخدمات التعليمية والخيرية لاستدراجهم للدين الجديد.

كما اتجهت فرنسا لتحقيق عملية التنصير إلى جمع الأطفال اليتامى وأبناء الفقراء، وإغراءهم بكل الوسائل لتنشئتهم على الديانة المسيحية.

وقد كتب الكاردينال "لافيرجي" في مقدمة برنامجه لتنصير أطفال الجزائر قائلا: " **علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية عظيمة. أعني بذلك فرنسا أخرى يسودها الإنجيل دينا وعقيدة"**

أما الماريشال بيجو فقد قال: "**إن العرب لن يطيعوا فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، أي متفرنسين لغة وثقافة، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين**"[12]

د. الإدماج:

يعد الإدماج أحد آليات القضاء على الهوية الجزائرية، ويعني أن تكون الجزائر إقليما فرنسيا مثل فرنسا، وإلغاء كل ما يفصل باريس عن المقاطعات الجزائرية. وفي هذا الإطار لوحت الإدارة الفرنسية بمنح الحقوق الكاملة للجزائريين مقابل تخليهم عن أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية وقبولهم لأحكام القانون المدني الفرنسي. لكن لاقت هذه السياسة فشلا ذريعا.

7– آليات الحفاظ على الهوية العربية في عصر العولمة:

إن الحديث عن آليات الحفاظ على الهوية العربية في ظل العولمة يقتضي التعامل مع العولمة الثقافية. وتنبع ضرورات التعامل والمواجهة العربية لظاهرة العولمة بالأساس من الحاجة إلى حماية الهوية العربية الإسلامية وصيانة خصوصيتها الذاتية، ويتم ذلك من خلال التوجه إلى التطور الحضاري الإنساني ودعم التفاعل الحضاري الثقافي بين الأمم والشعوب.

وعلى المستوى الوطني نصل إلى أن مستقبل هوية الجزائر الثقافية يتوقف على جملة من العوامل أهمها [13]:

1- وجود إرادة سياسية قوية تستمد شرعية قوتها من تفويض شعبي واسع في إطار برنامج وطني يتم الاتفاق عليه بحيث ينسجم مع التطورات العالمية.

2- تبني سياسات علمية وثقافية تعبئ الطاقات وتفهم روح العصر ومتطلباته.

3- بناء الثقافة الجزائرية كجزء من الثقافة العربية وإعادة إنتاج منظومة القيم الاجتماعية، وتنمية وتعميق الوعي المدني، وتطوير مؤسسات التكوين الثقافي والاجتماعي كالأسرة، المدرسة، الجامعة، الحزب، المؤسسات الإعلامية.

4- إعادة النظر في الطرق التعليمية وتعليم الفكر النقدي، وزيادة الإنتاج الثقافي العربي الأصيل بشتى أشكاله مع التركيز على نوعية هذا الإنتاج.

5- فهم العولمة فهما صحيحا للتحكم فيها وتعديل قيمها وقوانينها وحركتها من قوانين اللاتكافئ إلى قوانين التكافؤ والمساواة، والاعتماد المتبادل بين المجتمعات.

استنادا إلى ما سبق طرحه من قضايا نصل إلى أننا مطالبين فعلا بالتحديث، أي الانخراط في عصر العلم والتقانة كمساهمين فعالين. كما أننا بحاجة كذلك إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والتقانة. ذلك لأنه من الحقائق البديهية في عالم اليوم أن نجاح أي بلد من البلدان النامية منها أو التي هي في طريق النمو، نجاحها في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية مشروط أكثر من أي وقت مضى بمدى عمق عملية التحديث الجارية في عصر العلم والتقانة.

الهوامش:

1. عبد الخالق الختاتنة، مستقبل التنمية العربية في ظل العولمة، ورقة مقدمة لأعمال الملتقى الدولي الأول حول الجزائر والعولمة، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر، 2001، ص 227.
2. نايف علي عبيد، العولمة والعرب، المستقبل العربي، العدد:221، يوليو، لبنان، 1997، ص 28 .
3. محمد حسين أبو العلا، دكتاتورية العولمة- قراءة تحليلية في فكر المثقف- الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 2004،ص 40.
4. نور الدين بومهرة، العولمة وإشكالية الهوية (الهوية العربية نموذجا)، ورقة مقدمة لأعمال الملتقى الدولي الأول حول الجزائر والعولمة، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر، 2001، ص 212.
5. علي ليلة، الأمن القومي العربي في عصر العولمة، ج1، منشورات جامعة عين شمس، مصر، 2009، ص 236.